حكايات مدائن : مدينة عمّان «الجزء الخامس»

المشهد الحضري : الخلفية والإسقاط والحدث -٣- «الحدث»

د. وليد احمد السيد

■ أفاق من نومه مع تسلل أولى خيوط الفجر الناعمة. كان السكون يلف المكان، وقد غابت حركة الأرجل الحثيثة عن شبكة الشوارع المحيطة. تنحنح المؤذن قليلا قبل أن يطلق العنان لتدرجات صوته في ترنيمات تسبق الأذان، تتخللها الصلاة والسلام على من بعث هاديا للأنام ورحمة للعالمين. تحرك وتقلب على جانبه الآخر، تبعثرت قطع الكرتون المقوّى التي كانت تدثر جسمه الناحل لتبعث بعض الدفء اتقاء لبرد تلك الليلة الخفيف، من ليالي الصيف المتأخر. دار بخلده شريط صغير من خواطر وذكريات النوم على أرض الساحة وقد أسند ظهره لواجهة الجامع الحسيني الكبير المطلة على مركز مدينة عمان التاريخي. كم كان برد تلك الليلة قارسا؟ آه ما أحلى النوم في فراش دفيء وثير! بمنأى عن أرض الساحة شديدة البرودة. ما كان يفصل جسمه عنها سوى قطع من الكرتون التي تقصر عن طول قوامه الممشوق. إن فردها ناحية رأسه قصرت عن قدميه. كانت عنده قطعة بالية من قماش التحفها تحت قطع الكرتون المتزاحم فوقه. فكّر قليلا أن هذا الضنك قد يكون أرحم من ظلم بعض البشر لليتامى أمثاله. صدرت عنه تنهيدة لا إرادية وقد مرت بخاطره سريعا ملامح من قصة حياته قبل أن ينتهي صبيا ينام على أرض الرصيف في ساحة الجامع. تقطعت به السبل بعد أن تقطعت أواصر الخير والرحمى عند أرحامه، من دائرة القرابة الثانية بعد أن رحل والداه عن هذه الدنيا. أفاق من شروده وتأملاته على صوت المؤذن ينادي لصلاة الفجر، نداء كان يعني بالنسبة له أن وقت القيام من رقدته قد بدأ يحين، إذ ما زالت عنده بقية باقية يسيرة من نوم بعد الصلاة قبل أن تكثر خطى الرائحين والغادين على أرض الساحة.

دينيا معاش للورى

وإذ غادر المصلون باحة الجامع الحسيني الكبير وأروقته، فرادى كما جاءوا، راحت جموع العاملين تتكاثر في جماعات أمام واجهة الجامع. مشهد صباحي تكرر ملايين المرات خلال العقود الماضية. فالساحة كانت تجمعا لعدة غايات: إما طلبا للعمل، أو كانت تتجمع فيها جموع الوافدين والناس لقضاء حوائجهم كنقاط تجمع والتقاء قبل انتشار الهاتف المحمول حيث كانت المواعيد تضرب للقاء المعارف وأفراد العائلة والأعمال بدلالة مواقيت الأذان في ساحة الجامع. منذ سبعينيات القرن الماضي، وبعد تدفق القوى العاملة الوافدة من الأقطار الشقيقة جنبا إلى جنب مع الأيدي العاملة المحلية، أصبحت الساحة مكانا للتجمع لغايات طلب العمل اليومي الحر. ومنذئذ أضحى مشهد سيارة «البكب» المكشوفة التي يقترب سائقها طالبا ثلاثة أو أربعة عمال مألوفا جدا، حيث يرى الناظر أو المارّ بالمكان مشهد تقافز الرفاق على ظهرها بكميات وفيرة زائدة على الطلب. وكثيرا ما كانت تحدث مشادات على ظهر سيارة «البكب» بين العمال الطامحين في عمل ذلك اليوم، إذ يطلب سائق السيارة من العدد الزائد على حاجته النزول، ليتحول المشهد إلى «خناقة» إذ كل يدعي أنه صعد السيارة أولا. وكان الأمر يحسم غالبا عندما يبدأ صاحب السيارة بتهديد الجميع بإنزالهم ما لم ينزل العدد الذي ليس بحاجته من العمال. وهذا بالتالي كان يؤدي إلى خلافات «وشللية» تتطور لسيطرة «مكانية» على أرجاء الساحة، تكرس قانونا طبيعيا في الكثير من المخلوقات التي تعتمد مبدأ «السيطرة على الحيز المكاني» أو تسمى (territorial)، بما فيها الكثير من أنواع الطيور والحيوانات المفترسة والبرية. وهو مبدأ يقضي بالتحكم المطلق بالحيز المكاني لدرجة التلاحم القتالي في حال تم «تدنيس» حرمات خطوط الحيز المكانية والفراغية.

خطوط الحركة المتقاطعة

هناك ثمة علاقة طردية بين اعتلاء الشمس كبد السماء وبين ازدياد الخطوط الوهمية لحركة الأرجل في الساحة. ولو تم تمثيل المشهد البصري في المكان العام الحضري للساحة الكبيرة القابعة أمام الجامع الحسيني الكبير وسط مدينة عمان التاريخي، بعدسة الكاميرا لتكونت صور انطباعية مدهشة لحركات الرائحين والغادين. وفي الوقت ذاته، فكلما زاد طول الظل على الواجهة الكبيرة للجامع كلما تكاثرت أعداد المتكئين على، والواقفين، والقاعدين بجانب، تلك الواجهة الحجرية بديعة التفاصيل والتكوين المعماري. وفيما تتقلص أعداد العمال الذين يتقافزون على السيارات المتوقفة لحظيا سعيا وراءهم قبل أن تنقلهم بعيدا على أطراف المدينة التي تشهد حركة مستمرة في الإنشاء العمراني، تتزايد في الوقت ذاته وبمرور الوقت شرائح المارة من وسط المدينة التاريخي باتجاه مواقف سيارات النقل العام باتجاه المحطة وسقف السيل التي تخدم مناطق عمان الشرقية كجبل النصر والأشرفية والوحدات والقويسمة وخريبة السوق. وفي هذه الأثناء تبدأ «البسطات» بالانتشار على طرف الساحة المؤدي إلى سوق السكّر والشبكة الداخلية المتفرعة غرب الجامع، حيث تجارة الجملة ومستلزمات الاستهلاك المنزلي من التموين السنوي كالجبنة والزيتون والزيت والبهارات بأنواعها والزعتر والعطور والمعلبات واللحوم والخضار والفاكهة، تلك المحلات التي تنتشر على طول الطرقات الضيقة المؤدية من الساحة وحتى شبكة الطرق إلى أن تنتهي بالقرب من سبيل الحوريات غربا وبالحمام التركي الملاصق لشارع اللحوم والخضار جنوبا. وفي هذه الطرقات تتقاطع حركات المتسوقين والعتالين الذين ما زال بعضهم يحمل على ظهره سلة من القش القوي ويسير أملا في عمل يمنحه إياه أحد المبتاعين كي يدور معه في السوق قبل أن يصل إلى الطريق الرئيس حيث يبحث الشاري عن سيارة تقله لوجهته بعد أن ينقد العتال أجره. وفي ذلك الوقت تدور جموع الناس لابتياع مستلزماتهم في هذه الطرقات الضيقة الظليلة التي تفوح فيها رائحة البهارات القوية وروائح الخضار والفاكهة الطازجة، والتي تمتزج مع أصوات الباعة الحاذقين الذين يدلل كل منهم على سلعته ويتفنن في اجتذات المارة ونقودهم بعروضهم المغرية و«مسامحتهم» في «طبشة الميزان» (وهو تعبير محلي دارج يعني زيادة طفيفة لصالح المشتري كرما وتسامحا من البائع وتعبيرا عن علاقة تجارية طيبة متساهلة بين الإثنين، وهو تعبير اختفى حديثا في الأسواق المعاصرة، أو ما يعرف بالمولات، التي تعتمد مبدأ التسليع والبيع المغلف مسبق التسعير، إذ اختفى البائع تماما وحل محله الميزان الأصمّ حيث يزن الشاري حاجياته بنفسه قبل أن يضع ملصق السعر بنفسه على كيس البضاعة الصغير ويولي وجهه شطر المحاسب «شبه الآلي» الذي يبدو أن صاحب المتجر قد استأجره لجبي النقود لتقليص حجم العلاقة التجارية «الإنسانية» المباشرة وجها لوجه قدر الإمكان مع جموع المتسوقين الهادرة، والتي تجسدها «طبشة الميزان» في الأسواق التقليدية.

في هذا المشهد الحضري، تختلط الألوان الزاهية للبسطات المنتشرة على طول الطريق الضيق والتي تقي من حر الشمس، وتظلل الطريق والمبتاعين والبائعين فتضفي جوا أليفا، تختلط مع مظلات المحلات الدائمة المنتشرة على طول الطريق والتي يملكها أو على الأغلب يستأجرها تجار اختلطت أعمارهم مع أعمار المحلات ذاتها وأحجارها العتيقة. وبينما تبدو البسطات على الطريق كالبائع المتجول خفيف الحركة والظل، تقبع المحلات العتيقة في خلفية المشهد وقد انتشرت على أبوابها بسطات المحل ذاته المعروض عليها أنواع السلع المختلفة في أكياس مفتوحة، وقد أطلت منها البهارات بأنواعها وألوانها وأشكالها، فيما توسط هذه الزكائب المتخمة بالبهارات والبقوليات وأنواع العدس والحمص والفول والسوس والخروب الجاف وسواها «صواع كيل» نحاسية جاهزة للكيل متى اقترب المشتري منها وراودته نفسه في ابتياع ما طاب وزكا من طعم ورائحة تعانق وتشنّف الأنوف «اللامزكومة». هذه المحلات الكبيرة يلحظها الرائي وكأنها تقف بصبر وثقة لا تهزها فورة وحمى البيع أمام البسطات الصغيرة المنتشرة، بل يطالع المرء آيات الرزق في خلفية المشهد البعيدة داخل المحلات الكبيرة، وإن اختلفت المعروضات والسلع بين البسطات الصغيرة المتنقلة وبين محال الجملة الثابتة. هذا المشهد يبدو دراميا، ففيما يشتد وطيس معركة الشراء والبيع في مقدمة المشهد التجاري الحضري تبدو خلفية المنظر وكأنها ثابتة صبورة شبه ساكنة. تتحرك عملية البيع بالمفرق والتجزئة في المشهد الأمامي فيما تكون العملية التجارية الأكبر بالجملة تدور في الخلفية لهذا المشهد الحضري الديناميكي الرائع والفريد، بما يبثه من انطباعات ورائحة ولون وملمس وتلمس ومشاهد بصرية لحظية متحركة تقترب من اللانهاية كفيلم قصير لا منتهي الإطارات الصغيرة المتتابعة – يمكن لأي منظر في أي من هذه الأطر الثابتة التي يقترب فيها الزمن للصفر «الحضري» أن يكون عنوانا ومسرحا لقصة قصيرة درامية. في هذا المشهد التجاري الحضري، تتمازج الخبرات الكبيرة للباعة ومهارات المشترين في المناورة والمناقصة «والمفاصلة» لتحقيق توازن بين سعر السلع المعروضة وبين حجم إنفاق المشتري وقدراته الشرائية وتواضع «النقود» في جيبه. هذه العملية التجارية التاريخية في المقايضة «الماهرة» باتت خبرات حياتية تناقلتها الأجيال أبا عن جد، وكانت تعد بمثابة علامة على «المهارة في فن الحياة وتدبير المعيشة». وكان الأصل فيها أن «القرش» يأتي بصعوبة ولذلك فإنه يشكل «عملة صعبة» لا بد من تقنين الإنفاق وترشيد الإستهلاك، وتضمين القيمة «المادية» والمعنوية في عمليات الشراء كلها. وكان للنقود قيمة وبركة ومعنى، فالعملة مهما تضاءلت فئتها، أو صغرت، كان لها معنى في حياة الأجيال السابقة، إذ أن «التدبير» في المعيشة كان عنوان الحياة نفسها. وكانت قدرة الرجل، والمرأة على حد سواء، في الحصول على السلع بقيمتها التي يقدرها المشتري هو علامة على «شطارة» المشتري، وأنه متمرس في فن الحياة ولا يقدر أن «يضحك عليه أحد». وكم من حكاية فيما مضى عن هذه العملية التجارية الفريدة في المقايضة بين البائع والمشتري قد رويت مع شيء من «الحيل» التي كان يعمد إليها بعض الباعة المتجولين «لصيد» المشترين الأغرار. ومن ذلك حكايات تروى عن باعة متجولين، للجاكتات القديمة مثلا، كان لهم أعوان من المارة أنفسهم، يساعدونهم في اصطياد ونصب «الأفخاخ» للمشترين غير المتمرسين في فن «المساومة». وكثيرا ما كان يقترب شار للسؤال عن سعر الجاكيت، فيطلب البائع سعرا ما، وفي هذه الأثناء يتقدم المعاون المتآمر مع البائع ويسأل عن سعر نفس الجاكيت، ليوقع في نفس «المشتري المحتمل الأول» أن الجاكيت قد أصبحت برسم المنافسة مع «مشتري آخر». وهكذا يصبح المشتري «الغشيم» غير المتمرس فريسة سهلة بين الإثنين (البائع ومعاونه)، وقد ينتهي الأمر بأن «يشتري» من لا دراية له السلعة بأكثر من سعرها بمعاونة «لئيمة» من «المساعد المتخفي» للبائع. وهذا غيض من فيض في فنون البيع والشراء، لكن الحد الأدنى يظل هو قدرة المشتري على تقدير القيمة الحقيقية للسلعة وقدرته على المناورة والمساومة للحصول على ما يريد بالسعر المناسب. وهكذا يكون هذا المشهد الحضري عبارة عن مسرح تجاري متعدد المستويات يتدرب فيه العامة على فنون الحياة، ومن لا يتعارك مع الحياة ويكتوي بنار تجاربها المختلفة ويتعامل مع فئات المجتمع المتنوعة فلا خبرة له وإن تخرج من أعرق الجامعات وحمل أرفع الشهادات.

وكان من النادر فيما مضى أن يختل هذا التوازن بين نوعية السلعة وبين سعرها – هذا إذا تم تحييد «التلاعب» في نوع أو وزن السلعة، وهو أمر نادر إن لم يكن دخيلا على هذه البيئة التجارية الأصيلة في وسط المدينة التاريخي رغم أنه لم يعرف حتى اليوم، وإن شاع وانتشر على أطراف المشاهد الحضرية المتناثرة في الشوارع الحديثة لباعة ليس لهم أصل أو تاريخ مرتبط بالمدينة أو وسطها أو حتى أطرافها.

سوق اللحوم والدواجن

على امتداد الشارع الرئيس الذي يقطع الساحة من شارع الملك طلال مرورا بالساحة وانتهاء بالمحطة ثمة محلات تعرض الألبسة والمنسوجات والأقمشة، لها باع وذراع في هذه التجارة وتمتد جذورها لتاريخ نشأة السيل والجذور الأولى للوسط التاريخي. وتتقدم هذه المحلات على الرصيف بؤر للباعة المتجولين، ولاحقا على امتداد رصيف الشارع الرئيس تجلس حرائر ورجال قدموا من القرى وأطراف المدينة يسعون لبيع الدواجن المنزلية كالأرانب وديوك الحبش والبط والأوز. وفيما تقبع الحيوانات المسكينة في الأقفاص تطالع الأرجل الغادية والرائحة، يجلس الباعة بالقرب منها، وخاصة أيام الجمعة، يساومون المهتمين من المارة للحصول على أعلى سعر يبيعون به هذه الدواجن المألوفة وغير المألوفة. وعلى ناصية الشارع الممتد بعد الجامع الحسيني وبالقرب من مدخل الحمام التركي التاريخي ثمة محل يمتد عبر التاريخ الحديث لوسط المدينة تطل منه أقفاص بها ببغاوات ملونة ترمي نظراتها الحادة المتفحصة على المارة. وفي ذات الشارع الفرعي الواصل بين الشارعين المتوازيين الممتدين شرقا وغربا ثمة محلات لبيع المشاوي والمرطبات وساندوتشات اللحوم والمشويات من اللحوم البلدية والتقليدية. وفي هذه المطاعم التقليدية السريعة حيث تباع ساندوتشات الفلافل أيضا ترى العمال يقومون بعملية لف شبه أوتوماتيكية آلية الساندوتشات وقلي الفلافل وتجهيز السلطات التي تدخل في مكونات الساندوتشات.

سوق اللحوم والخضار

هناك أكثر من مدخل لهذا السوق من الشارعين الرئيسين: من شارع الحمام الفرعي ثمة مدخل صغير يفضي تدريجيا لهذا السوق التاريخي حيث يعبق الجو بروائح الطازج من الخضار والفاكهة. وبه يقف الباعة خارج المحلات حيث يدور المشترون على أنواع اللحوم والدواجن الطازجة والأسماك. في الطابق السفلي لهذا السوق قديما وحتى عقدين ماضيين كان يتم ذبح الماشية وسلخها وبيع أجزائها، ولكن يبدو أن هذه القصة الدرامية قد وضع حد لها حديثا إذ أغلق هذا الطابق السفلي حديثا لتقتصر القصة الدامية على الملحمات المنتشرة في الطابق الرئيس للسوق حيث تعرض أصناف الماشية واللحوم بالإضافة لبسطات الخضار والأسماك، وبعض محلات البهارات والتوابل والمستلزمات المنزلية الأخرى للولائم والوجبات الدسمة. في هذه المشاهد المتنوعة في صبيحة يوم من أيام الوسط التاريخي لمدينة عمان تجول «وحيد» بعد أن أفاق من «مخدعه» أمام ساحة الجامع الرئيسة حيث تدور هذه «الأحداث الحضرية». ■